السياق والمقام وأثرهما في بناء المعنى وتحديده عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين

عامر بن شتوح

جامعة عمار ثليجي– الأغواط

www.benchettouh@yahoo.fr

ملخص:

إن هذه المداخلة جاءت من أجل إثبات رجاحة العقل العربي وتميزه مذ زمن بعيد فالجاحظ أحد هذه العقول الكبيرة التي يزخر بها التاريخ الإسلامي والعربي التي لها الفضل الكبير في بناء هذا الصرح اللغوي، وعلى وجه الخصوص علم البلاغة العربية فهو يعتبر المؤسس الأول لهذا العلم بسفره الموسوم بالبيان والتبيين، وعليه حاولت جاهدا أن أثير قضية أثارت اهتمام الكثير من الباحثين والمهتمين ألا وهي دور المقام أو بما يسمى بسياق الحال في صناعة الكلام من جهة ومن جهة ثانية كيف يمكن له أن يحدد القصد منه (الكلام)، حيث تطرقت إلى السياق والمقام لغة واصطلاحا، ثم قمنا بانتخاب أهم النصوص التي تؤكّد مدى أهمّية

سياق الحال في بناء وفهم الكلام سواء كان مكتوبا (النص) أو منطوقا عند الجاحظ.

مقـــدمـــة:

إن الفائدة الكبرى للمقام أو سياق الحال، أنهما يقومان في أحيان كثيرة بتحديد المعنى المقصود من الكلمة المستعملة في تركيب ما أو التركيب ككل، فقد نظر إليهما العلماء قديما نظرة واحدة كما أنهما في بعض الأحيان يسميان بسياق الموقف [1] إلا أننا في بداية هذا المقال سوف نحاول أن نقدم المعنى اللغوي والاصطلاحي أولا لهذين المفهومين ثم نتطرق إليهما على أساس أنهما عامل واحد له أهمية كبيرة في إنجاز الدلالة وفهمها عند الجاحظ.

السياق:(contexte)

السياق لغة:

من ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، قال تعالى ((وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد)) [2]وقيل في التفسير : يسوقها إلى محشرها، و المساوقة، المتابعة [3] وذكر التهانوي: أن السياق في اللغة بمعنى الإراد [4]

السياق اصطلاحا:

هو تلك العلاقات القائمة بين الكلمات، واستعمالاتها داخل نظام الجملة وهذا ما أكده أصحاب نظرية السياق [5]إذ أكدوا على الوظيفة الاجتماعية للغة، حيث نجد أن معنى

الكلمة عندهم هو استعمالها في اللغة، كما أنهم يركزون على أنه هو أهم ما يضبط الوحدة اللغوية، و معظم الوحدات اللغوية الدلالية تقع متجاورة مع وحدات لغوية أخرى فمعنى هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها[6].

أما ستيفن أولمان– s-ullmann –يعرفه بقوله:"إن كلمة السياق contexte هي النظم اللفظي للكلمة، وموقعها من ذلك النظم، كما ينبغي أن يشمل كل ما يتعلق بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن"[7].

المقام لغة :

المقام: موضع القدمين والمقامة بالضم : الإقامة والمقامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس، وأما المقام بفتح الميم والمقام بضم الميم، فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة وقد يكون بمعنى موضع القيام، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وان جعلته من أقام يقيم فمضموم، فان الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة نحو : دحرج وهذا مدحرجنا ن وقوله تعالى :"لا مقام لكم "أي لا موضع لكم وقرئ لا مُقام لكم بالضم أي لا إقامة لكم وقوله تعالى :" وحسنت مستقرا ومُقاما" أي موضعا، وقول لبيد:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

مقامها أي الإقامة، وقامة المرأة تنوح أي جعلت تنوح، قد يعنى به ضد القعود، لأن أكثر نوائح العرب قيام، قال لبيد:

قوما تجوبان مع الأنواح[8]

المقام اصطلاحا:

إنه يتمثل في مجموع العناصر غير اللغوية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالنص الكلامي بهدف بلوغ المعنى المراد يقول تمام حسان في ذلك:"هذا هو المقصود بفكرة المقام، فهو يضم المتكلم والسامع أو السامعين والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث الواردة relevant في الماضي والحاضر ثم التراث والفولكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات والخزعبلات... " [9]

فالجاحظ يعتبر من أولئك الأوائل الذين تفطنوا للدور الذي تلعبه الملابسات والظروف الخارجية التي تحف بظاهرة الكلام كالمتكلم والسامع وظروف المقال [10] ، فقد تحدث المفسرون قديما عن أهمية العلم بأسباب النزول في القرآن الكريم وأفردوا له بابا بالتأليف للكشف عن الغموض الذي يكتنف بعض آي القرآن، فقد قال ابن دقيق العيد :"بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن" [11]، وقال ابن تيمية :"معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب " [12]، وقال الو احدي : "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها" [13]. لذلك ركز علماء اللغة على ما هو منطوق، فتعرضوا للعلاقة بين المتكلم وما أراده من دلالة والسامع وما فهمه من الرسالة وكذا الأحوال المحيطة بالحدث الكلامي، فالجاحظ كان له اهتمام

كبير بهذه الحيثيات التي تصنع خطابا ذا معنى فتفطن لها ودعا إليها يقول في ذلك :"...فكن في ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، إما عند العامة إن كنت للعامة أردت.و المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، و كذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة.و إنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال...فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، و اقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، و تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفوا عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"[14].

من خلال النص السابق يمكننا القول بأن الجاحظ كان يركز على الكلام المنطوق، ليس في هذا النص فحسب فهناك نصوص أخرى تثبت صحة ما سنذهب إليه، فهو عندما يقول :-..أن يكون لفظك رشيقا.. – هذا يعني وبكل وضوح أنه يتكلم عن الكلام المنطوق حيث اشترط له شروطا حتى يكون مفهوما وله دلالة عند السامع واضعا في الحسبان الطبقة التي يتواصل معها فالخاصة من الناس لها ألفاظ خاصة، والعامة من الناس لها ألفاظ خاصة بها أيضا، فالمعني عنده لا يشرف ولا يتضع بالخاصة أو بالعامة ، إنما شرفه مرهون بالصواب وإحراز المنفعة، كما يجب أن يتفق مع الظروف الخارجية التي أوجدت هذا الخطاب دون غيره، كما أنه دعا إلى من تحلى بصفة الاقتدار على توصيل معاني الخاصة إلى العامة فله ذلك، شريطة أن يكسو تلك المعاني ألفاظا واسطة بعيدة عن كل غموض فذلك من تمام بلاغة المتكلم.

إن عبارة الجاحظ الفارطة الذكر – لكل مقام مقال – هي عبارة شهيرة عبارة تصدق على دراسة المعنى في كل اللغات لا في اللغة الفصحى فحسب، فهي تصلح للتطبيق على كل الثقافات على حد السواء، فمالينوفسكي لم يكن يعلم وهو يصوغ مصطلحه الشهير:context of stiuation أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها[15]. فالمعنى الدلالي في بعض الأحيان لا يتضح بمجرد النظر إلى معنى – المقال – فلا يكننا بأي حال من الأحوال تناسي أو نسيان –المقام– لأن المقام يعتبر عاملا مهما في تحديد محتوى الرسالة –وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا[16].

لأجل ذلك أصبح من الضروري على المتكلم أن يعرف أحوال من يخاطبهم من حيث الميولات والتكوين الثقافي وما إلى ذلك، كما يجب عليه أن يعرف أقدار المعاني من إطناب وإيجاز، فهذا بشر بن المعتمر أوصى المتكلم –:ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها، وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ن ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على اقدر المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات[17].

ليس هذا فقط فالجاحظ لم يراع حال المخاطب فحسب بل تنبه إلى شيء آخر في غاية الأهمية، كونه راعى أيضا حال المتكلم، فهو يرى أنهما متساويان في صنع خطاب حقيقي له معنى ولهذا قال:" إن المفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن إلا المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم، وهكذا ظاهر هذه القضية وجمهور هذه الحكومة"[18].

إن علاقة العلامة اللغوية بالمجتمع علاقة تجعلنا ندرك أن للعلامة بنمطها السيميائي ذات فضاء ليس من السهل إخضاعه لثنائية الدال والمدلول لأن العلامة في أساسها تتسم بديناميكية وحركية وبالأحرى فهي إنزياحية وتكتسب دلالتها من الحيز الاجتماعي [19].

وبالتالي كل فئة اجتماعية تتميز برصيد علاماتي معين يتطلب منا أن نخاطبها به، وهذا نفهمه من خلال قول الجاحظ التالي :"وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسميح والثقيل، وكله عربي وبكل قد تكلموا وبكل قد تمادحوا وتعايبوا، فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذ لك تفاوت، فلم ذكروا العي والبكى والحصر والفحم الخطل والمسهب والمتشدق والمتفيهق والمهماز والثرثار والمكثار والهماز، و لم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط، وقالوا رجل تلقاعة وتلهاعة وفلان يتلهيع في خطبته، قالوا فلان يخطئ فبجوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره ؛ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء "[20] فعلى المتكلم أن يكون كيسا فطنا ويعرف من يخاطب، فكلام الطالب مع أستاذه يختلف كل الاختلاف عندما يكون كلامه مع أحد أصدقائه، فهذا مقام وذلك مقام، ولكل مقام مقاله الخاص به، لأنه من واجب المخاطب أن يعطي كل مقام حقه من سياسة وحذاقة حتى يعطي مقالا له دلالة بالنسبة للمستمع[21].

فهذا عبد القاهر الجرجاني ذهب مذهب الجاحظ إلى ضرورة ربط الكلام بسياقه الابلاغي الذي يقال فيه، وأن لا ننظر إلى حسن التركيب أو وجه من الوجوه بل علينا أن ننظر على المقام، وهذا ما سماه البلاغيون بمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب يقول القز ويني

:-...فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التذكير يباين مقام التعريف، و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد، مقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل...وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعد مطابقته بمقتضى الحال، هو الاعتبار المناسب، وهذا يعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم[22].

إن مصطلح –مقتضى الحال –السابق الذكر اهتم به علماء علم المعاني والحال عندهم يعدل على –مقتضى الحال- يقول التهانوي:"والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها... وعلى هذا النحو قولهم –علم المعاني –علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال –أي يطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معللة بالأحوال"[23].

ها هو الجاحظ يؤكد على ضرورة التقيد بمقتضى الحال من طرف المتكلم حتى يكون كلامه مفيدا يقول في ذلك:"ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا نولا مشتركا، ولا مضمنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه

لموارده، ويكون لفظه مونقا، و لهول تلك المقامات معاودا.ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم..."[24]

يبدو أن للجاحظ معرفة واسعة بالدور الذي يكتسيه سياق المقام –الحال– في إنتاج الوحدات اللسانية وفق نظام لغوي تركيبي له معنى، فهذه النظرة نجدها عند فيرث ferth الذي يرى– أن إنتاج الملفوظات اللسانية يتم في إطار سياق الموقف الاجتماعي والثقافي، وبذلك يبرز المتكلم –المستمع –للغته دوره وشخصيته في البيئة اللسانية المتجانسة [25]، فقد اعتمد في تحليله اللغوي على سياق المقام مركزا على كل ما يتصل به من ظروف وملابسات.

وعليه يمكننا القول بأن الجاحظ قد أعطى أهمية كبيرة للسياق الخارجي الذي يسهل على السامع والمخاطب دون أن لا ننسى القارئ في فهم الخطاب سواء كان منطوقا أو مكتوبا، كما أنه اهتم بالسياق اللغوي مثلما لاحظنا ذلك أثناء حديثنا عن العلاقات التخيير والتأليف التي دعا إليها، حتى يكون الكلام وفق نظام سلس وسياق لغوي متميز وما يترتب على ذلك من دلالات مختلفة، ليس فيه من التكلف والصنعة شيء.

فهذا سيبويه كان من الذين اهتموا بسياق الحال كما يسميه بنفسه وعناصره المكونة له كالمتكلم والمخاطب والعلاقة الموجودة بينهما وموضوع الكلام وأثره والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي وغير ه من العناصر غير اللغوية المصاحبة للكلام.ومثال ذلك اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم والمستمع وما ينتظره المخاطب من المتكلم، فالمتكلم إذا قال :"كان زيد–فإن المخاطب–إنما ينتظر الخبر "[26]. وإذا قال المتكلم :"كان حليما –فإنما ينتظر –أي المخاطب –أن تعرفه صاحب الصفة"[27].

أكد ابن جني على أهمية سياق المقام، فهو يرى أن له دورا بارزا في فهم دلالة النص ومنه ما تعرض له من أسباب تسمية الأشياء كأن :"...يكون الأول الحاضر شاهد الحال فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية، والآخر –لبعده عن الحال – لم يعرف السبب للتسمية"[28].

فابن جني أثناء حديثه عن طبيعة اللغة التي كان أكثرها مجازا فهو يرى أنه لو لا سعة انتشارها لمقتضيات أعراف وعادات الناس لما فهم الناس منها شيئا، لأن الثقافة الاجتماعية لها علاقة بالدلالة التي جرى استعمالها في غير ما وضعت له على سبيل المجاز.يقول في ذلك :"أكثرها جار عن المجاز...فلما كانت كذلك، وكان القوم الذين خوطبوا بها أعرف الناس بسعة مذاهبها، وانتشار أنحائها، جرى خطابهم بها ما يألفونه ويعتادونه منها وفهموا أغراض المخاطب لهم بها على حسب عرفهم، وعاداتهم في استعمالها"[29].

يقول أيضا في باب ذكر علل العربية أكلامية هي أم فقهية : " نعم وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لبعدها في الزمان عنا. ألا ترى إلى قول سيبويه : أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر، يعني أن يكون الأول الحاضر شاهد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية، والآخر لبعده عن الحال لم يعرف السبب للتسمية ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته : قد رفع عقيرته، فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت، وبين معنى (ع ق ر) لبعد عنك وتعسفت. وأصله أن رجلا قطعت إحدى رجليه، فرفعها على الأخرى، ثم صرخ بأعلى صوته فقال الناس، رفع عقيرته "[30].

يشير ابن جني في نصه السابق إلى دور سياق الحال في تحديد المعنى ونقصد به كل الظروف الاجتماعية والنفسية....التي تحيط بكل من المتكلم والسامع، إلا أننا نجد أن المعنى الاجتماعي يبقى أعم من المعنى المعجمي، فهذا الأخير موجود في المعاجم محدد دقيق، تعارف عليه الناس، أما المعنى الاجتماعي فهو متعلق بمجموعة الظروف والملابسات والمواقف المحيطة بالإنسان كما قلنا سلفا.

حيث وضح ابن جني هذه الظاهرة اللغوية بكلمة (ع، ق، ر)، مميزا بين معناها المعجمي وهو الرِجل المقطوعة ومعناها الاجتماعي وهوا لصوت.

وربما يرجع السبب في هذا الاختلاف إلى عدم علم الأشخاص الذين لم يشاهدوا الواقعة بالظروف التي وقعت فيها هذه الحادثة، فربطوا بين سماعهم للفظ (عقيرة) وارتفاع صوت الشخص، فتصوروا أن معنى رفع عقيرته هي رفع صوته، وهو المعنى الاجتماعي.

الخاتمة:

وفي ختام هذا المقال نقول :إن نجاح العملية التواصلية مرهون بربطه بسياق الحال وكذا بحسن الكلام وجودته حتى يسهل على السامع أو القارئ فهم الرسالة الموجهة إليه سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد، ولن يكون ذلك إلا إذا كان كل من المتكلم والسامع وحتى القارئ ملمين بمجموع العناصر اللغوية وغير اللغوية التي دعا إليها الجاحظ والحال أو المقام أحد هذه العناصر التي لها الحظ الأوفر في صنع ذلك الحدث الكلامي، فالمعنى الدلالي لا يمكن أن يتضح أو يتحدد بمجرد النظر إلى معنى السياق اللغوي فحسب وعليه فالمقام يعتبر عاملا مهما في تحديد مضمون الخطاب سواء كان منطوقا أو مكتوبا.

الهوامش

1)-ينظر :د/حلمي خليل، الكلمة، دراسة لغوية ومعجمية، دار المعرفة الجامعية، ص218

2)-ق/21.

3)- ابن منظور(محمد بن مكرم) – لسان العرب، دار صادر بيروت، ط 3، 1994م ج10/ص166.

4)-ينظر :التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط 4 سنة 1977م ص27.

5)-لقد كان زعيم هذا الاتجاه فيرث -firth-الذي أكد على الوظيفة الاجتماعية للغة، كما ضم هذا الاتجاه أسماء مهمة أمثال: halliday وintosh و sinclair وmitchell و mc lyons – د/أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة ط5، 1998م ص 68.

6)-نفسه، ص ص 68- 69.

7)-ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر:د/كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ط12، ص68.

8)-لسان العرب ج 12، ص 498.

9)- تمام حسان، اللغة العربية معناها مبناها، عالم الكتب، للنشر والتوزيع والطباعة ط 4، 2004م، ص352.

10)- تجدر الإشارة إلى أن الجاحظ لم يستعمل مفهوم المقام فقط للتعبير عن الملابسات والظروف التي تسهم في صنع النص أو في قراءته قراءة صحيحة بل استعمل أيضا مفهوم الحال ص 93، والموقف ص 116، والموضع ص 88 (الجاحظ (أبو عثمان)-البيان والتبيين ج 1، تح:عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دت)التي أراد بها المقام. إلا أن المقام هو الغالب في الاستعمال عنده.

11)-جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكب العلمية، بيروت –لبنان ص61-62.

12)-نفسه، ص نفسها.

13)-نفسه، ص ننفسها.

14)-البيان والتبيين، ج1، ص 136.

15)-اللغة العربية معناها ومبناها، ص 372.

16)- نفسه، ص346.

17)-البيان والتبيين، ج1، ص ص 138 -139.

18)-نفسه، ص ص 11-12.

19)-ينظر: قدور عبد الله ثاني، سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، ط1، 2008م، ص 78.

20)-البيان والتبيين، ج1، ص ص 144-145.

21)-ينظر: البيان والتبيين، ج1، ص 116.

22)-الخطيب القز ويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت، ط3، 1993م ص42-44.

23)-التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون ج2 ص 125.

24)- البيان والتبيين، ج1، ص 93.

25)- أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، د م ج، الجزائر، دط، دت، ص 154.

26)- سيبويه، الكتاب، تح وشر:عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، ج1 ص48ج1.

27)-ينظر:نفسه، ص ص47-48.

28)- ابن جني (أبو الفتح عثمان)– الخصائص، تح:عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوقيفية ج 1، 1418، هـــ، ص 71.

29)-نفسه، ج3، ص ص175-176.

30)-نفسه، ج1، ص66.